

حياة السيد المسيح (ع) في ضوء القرآن الكريم



إنَّ الآيات القرآنية التي تتناول حياة السيد المسيح (ع) بعد أن رفعه الله إليه لا تتجاوز الخمس آيات. وإنَّ البحث حول هذا الموضوع هو بحث قرآني أوّلاً، وعقائدي ثانياً. وسنبداً بالبحث في تلك الآيات وفق الترتيب التالي:

الآية الأولى: قوله سبحانه:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ وَكِيلَكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ...) (آل عمران/ 55).

فهل التوفي في الآية بمعنى الإمامة؟

أو إنَّ للتوفي معنى آخر؟

إنَّ استعمال القرآن لهذا اللفظ في أكثر من مكان يكشف عن معنى الأخذ والاستيفاء، وهذا يتحقق بالإمامة تارة، وبالنوم أخرى، وثالثة بالأخذ من الأرض والعالم البشري إلى عالم آخر (وهو عالم السماء أو غيره).

1- قال سبحانه: (اللَّهُ يُتَذَوِّفُ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَاللَّهُ لَمَّ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْآخِرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) (الزمر/ 42).

لا شك أن كلمة "والتي" في الآية معطوفة على كلمة "الأنفس" .. وتقدير الآية: (اللَّهُ يُتَذَوِّفُ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَاللَّهُ لَمَّ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا). ولو كان التوفي بمعنى الإمامة لما استقام معنى الآية، إذ يكون معناها حينئذ: (إِ يميت الأنفس حين موتها، ويميت التي لم تمت في منامها)!.
فدراءاً للتناقض الواضح، لا مناص من تفسير "التوفي" بمعنى "الأخذ" وهو ينطبق على الإمامة (الموت) في القسم الأول من الآية، وعلى الإمامة في القسم الثاني منها.

2- وقال سبحانه: (وَهُوَ الَّذِي يَتَذَوِّفُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ ثُمَّ يُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الأنعام/ 60).

فإنَّ توفيَّ الناس في الليل لا يعني الإمامة بل معناه أخذهم بالنوم ثمَّ بعثهم باليقظة في النهار ليقضوا بذلك آجالهم المسمَّاة، ثمَّ إلى إرجعهم بالموت والمعاد..

3- وقال سبحانه: (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَذَوِّفَ أَهْلُ الْمَوْتِ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) (النساء/ 15).

فلا معنى لتفسير التوفي بمعنى أنَّهُ "يميتهنَّ الموت". وبهذه الاستعمالات القرآنية ندرك أنَّ "التوفي" ليس مرادفاً "للموت والإماتة"، وإنما هو أخذ الشيء وافياً كاملاً وبرمته وكلاسه. والأخذ إما من عالم الحياة أو من عالم اليقظة أو من عالم الاختلاط بالبشر.

وبهذا يبطل الاستدلال في الآية الأولى بلفظ (متوفيك) على موت المسيح (ع)، لما عرفت من اشتراك اللفظ بين الإمامة وغيرها.

وأما قوله تعالى: (.. وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذِّينِ كَهَرُوا...)، فللرفع ثلاثة احتمالات:

- إما رفع المنزلة، كقوله تعالى: عن إدريس (ع): (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) (مريم/ 57).
- وإما الرفع الحسي والنقل من الأرض.
- وإما رفع روحه دون بدنه.

الآية الثانية:

(وَقَوْلِهِمْ إِنْ نَّاسَا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا

قَتَلُوهُ وَمَا صَلَّيْتُمْ بِهِ وَلَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَهُ لَكُمْ بِهِ شَيْءٌ وَلَٰكِنْ شَبِّهْتُمُوهُ بِالْإِنْسَانِ الَّتِي نَتَّبَعُونَ فَأُولَٰئِكَ يَتْلَوْنَ مَا يُسَاءَلُونَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ الْأَكْثَرِينَ لَا يُعْقِلُونَ فَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ بِالْإِثْمِ بِالْإِنْسَانِ الَّتِي نَتَّبَعُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّا كُنَّا ضَالِّينَ لِمَا كُنَّا نَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لِمَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ الْقَوْمَ الَّذِينَ يَكُونُونَ لِلَّهِ نَاظِرِينَ أَعْيُنُهُمْ لِيَلْزَمُوا اللَّهَ رَبَّهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (النساء / 157-158).

نزلت هذه الآية الكريمة لتكذيب ادعاء اليهود وزعمهم بقتل المسيح (ع) وصلبه. وهي تسكت عن موته بعد ذلك أو بقاء حياته واستمرارها إلى اليوم. فيكون هدف الآية ومفادها هو تفنيد زعمهم وتأكيدهم رفع عيسى (ع) إليه سبحانه. والرفع لابد أن يتعلق بمتعلق الادعاء والزعم، ومتعلق الادعاء والزعم هو الوجود الخارجي للمسيح (ع) (جسمه وروحه)، فيكون هو عينه متعلق الرفع أي أنَّهُ رُفِعَ إلى الله بجسمه وروحه لأنَّ الرفع هو تخلص وإنجاء للمسيح (ع) من أيدي أعدائه (سواء مات بعد ذلك أم لا). وهذا يتم برفع شخصه (ببدنه وروحه) من بين الأعداء حتى لا يتمكنوا من قتله وصلبه، وإلا لو قلنا بكون المراد من الرفع هو رفع روحه دون جسمه للزم من ذلك القول بإبقاء جسده بين الأعداء وتسليطهم عليه كما أنَّهُ لا يصح إعادة ضمير الهاء في (رفعه) إلى الروح فقط، أضف إلى أن ذلك لا يعدّ ردّاً وتفنيداً لادعاء اليهود. وكذلك القول بأنَّ المقصود بالرفع هو رفع شأن، فينحصر معنى الرفع بالرفع الشخصي: بالروح والجسم.

الآية الثالثة:

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثًا أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ الْأُولَىٰ وَأَخْلَىٰ عَلَيْهِمْ وَأَنزَلْنَا لَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ نَبَأُ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَمَا كُنَّا بِمُعْجِزِينَ عَنْهُمْ فَهَلْ يَسْتَكْبِرُونَ وَلَقَدْ آتَيْنَا الْيَحْيَىٰ بِالْإِنجِيلِ فَنفَخْنَا فِيهِ رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَنَا بَشَرًا وَكَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (النساء / 117)).

لا إشكال في أن زمان المحاورة في الآية بين الله سبحانه وبين المسيح (ع) هو يوم القيامة. وأما "التوفي" فيها فقد عرفت أنَّهُ ليس مرادفاً للموت، بل هو بمعنى الأخذ تماماً الذي يتحقق تارة بالإماتة وأخرى بالنوم وثالثة بالأخذ من المجتمع. ولا يصح لأحد التمسك بمعنى منهما دون دليل. وأما مصير عيسى (ع) بعد الرفع: وهل بقي حياً أم لا، فلا تدلّ الآيات السابقة على شيء من هذا.

الآية الرابعة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِن دُونِ اللَّهِ فَلَنَنكِسَنَّ لَهُمْ فِي الْأَبْدَانِ أَعْيُنَهُمْ فَذُرِّيَّتُهُمْ وَهُمْ فِيهَا لَأَوْدَعُونَ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (النساء / 159)).

إنَّ لفظ "إن" في الآية هو بمعنى ما النافية، والمبتدأ محذوف يدل عليه سياق الكلام، فيكون معنى الآية هو (ما أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمن به)، والضمير في لفظ "به" ولفظ "يكون" هو نفسه ويرجع إلى عيسى (ع) بلا نقاش.

ولكن الكلام هو في قوله تعالى: (قبل موته)، فهو ضمير الهاء في (موته) يرجع أيضاً إلى (المسيح) (ع)

أو يرجع إلى (أحد) المقدّر؟.

كلاهما محتمل ولا يمكن القطع بأي واحد من الاحتمالين لأوّل وهلة! إلا أنّ الإمعان في سياق الآية يؤيد رجوع ذلك الضمير إلى (المسيح) (ع) لا إلى (أحد من أهل الكتاب)، لأنّ البحث إنما هو حول قتل المسيح وصلبه، فيناسب أن يكون المراد من (موته) في الآية هو (موت المسيح) (ع) لا (موت الكتابي). وهذا يدل على كونه حيا، وأنّه لا بدّ أن يدركه كل الكتابيين فيؤمنوا به قبل موته (ع).

فالتدبّر في سياق هذه الآية، وما ينضم إليها من الآيات المربوطة بها يفيد أن عيسى (ع) لم يُتوفّ بقتل أو صلب، ولا بالموت حتف الأنف، وأنّ الكتابيين جميعاً سيؤمنون به قبل موته، ويشاهدونه عياناً ويزعمون له إدعائاً لا خلاف فيه، وهذا فرع كونه حياً حتى يؤمن به كل كتابي قبل موته.

الآية الخامسة:

(وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُنَّ بَرَّهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ) (الزخرف/ 61).

إنّ هذه الآية وما قبلها هما بصدد بيان شأن المسيح (ع) وموقفه أمام الله سبحانه وتعالى، وأنّه لم يكن إلهاً بل كان كما وصفه سبحانه: (إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عِبْدٌ أَرْعَاهُمَا عَلَايَهُ وَجَعَلْنَا لَهُ مَثَلًا لِّلْبَنِي إِسْرَءِيلَ * وَلَوْ رَشَاءُ لَّجَعَلْنَاهُ مِّنكُمْ مَّلَئِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ) (الزخرف/ 60-59)، (وإنّه لعلم للساعة... مستقيم).

فسياق الآيات ينفي نفياً قاطعاً أن يكون القرآن أو النبي الأكرم (ص) مرجعاً للضمير بل المرجع في ضمير "إنّه" هو المسيح (ع) بلا شك لأنّ الآيات السابقة تبحث عنه (ع)، فالآية تفيد أنّ المسيح سبب للعلم بالساعة.. وعليه فيجب تحليل كيفية كونه علماً للساعة. وإليك الاحتمالات:

1- إنّّه بخلقه من دون أب، أو بإحيائه للموتى دليل على صحة البعث وإمكانه: وهذا مرفوض لأنّ البحث ليس في إمكان البعث وعدم إمكانه، والآية لا تحتل ذلك، وإلا لكان الأنسب أن تقول: وإنّه فعله دليل على إمكان البعث.

2- إنّ وجود عيسى دليل على قرب الساعة وشرط من أشراطها. وهذا أيضاً مرفوض، لأنّه لو كان وجوده دليلاً على قرب الساعة فوجود النبي الأكرم (ص) أولى بأن يكون كذلك.

3- فلم يبق إلا الاحتمال الثالث بأن وجود عيسى (ع) في طرف خاص من الظروف (غير ظروفه السابقة الماضية) يكون علماً للساعة، فإذا أضيفت إليها الأخبار والروايات المستفيضة المصرّحة بنزوله في آخر الزمان، يتجلّى مفاد الآية بصورة واضحة.

هذا خلاصة القول في تبين مفاد الآيات، حيث إنّ الثلاث الأوّل تدل على كونه حياً عند الرفع، بينما الآيتان الرابعة والخامسة تدلان على حياته حتى الآن.

